مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والانسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد: 02 السّنة: 2020 ص: 47 - 63

التراث النقدي العربي في سياق الازدواجية والاغتراب الثقافي للنقاد العرب مقاربة في نماذج نقدية مختارة

Arab critical heritage in the context of duplication and cultural alienation of Arab critics Approach in selected monetary models

ط/د بلبركي فطيمة [*] ،
د/السعيد ضيف الله [†]

تاريخ الاستلام: 07 / 12/ 2020 تاريخ القبـول: 27 / 02/ 2021

ملخّص:

تعد مسألة استحضار التراث النقدي القديم- قراءةً وتأويلاً- إشكالية كبيرة في النقد العربي الحديث والمعاصر، وهي إشكالية فرضتها سياقات تاريخية وثقافية معقدة في ظِل هيمنة النظريات النقدية الغربية من جهة، وتبني بعض النقاد العرب لمعطيات تلك النظريات في محاورتهم لهذا التراث من جهة أخرى، فهل كانت محاورة موضوعية منصفة ومثمنة لمنجزات النقد القديم ؟ أم أنها محاورة اغترابية مُنحازة تعكس ولائهم للثقافة الغربية ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات حاولت الدراسة مقاربة نماذج قرائية لبعض النقاد المغتربين ثقافياً وكشف رؤيتهم للمنجز النقدي القديم، لتصل إلى أنها ليست محاورة بقدر ما هي دعوة للقطيعة مع كل منجزات العقل النقدي العربي في عصور ازدهاره وتطوره الحضاري.

كلمات مفتاحيّة: التراث النقدي، الاغتراب ، النقد العربي ، القراءة، القطيعة.

Abstract:

[*] المركز الجامعي الشهيد سي الحواس بريكة (balberkifatima1978@gmail.com)
[†] المركز الجامعي الشهيد سي الحواس بريكة said.difallah@gmail.com

In modern and contemporary Arab criticism, the question of conjuring up the old critical heritage - reading and interpretation - is highly problematic. It has been imposed by complex historical and cultural contexts, given the dominance of Western critical theories. Or is it a biased alien dialogue that reflects their loyalty to Western culture? To answer these questions, the study attempted to approach the reading models of some culturally expatriate critics and reveal their vision of ancient monetary achievement, to the point that it is not so much a dialogue as an invitation to break with all the achievements of the Arab monetary mind in the times of its prosperity and civilizational development.
Keywords: Critical heritage, alienation, Arabic criticism, reading, cutoff.

1. مقدّمة:

تعرف قضية قراءة التّراث النقدي اهتماماً كبيراً في الدرس النقدي العربي الحديث والمعاصر، وقد تحولت إلى إشكالية بسبب الجدل المُثار حولها بين النقاد الذين تباينت درجات فهمهم وأساليب معالجتهم لهذه القضية، بل إنهم انقسموا إلى ثلاث اتجاهات، اتجاه يقدس التراث ويقوم على إحياء أمجاده وبعثها، والثاني اتجاه تغريبي ليبرالي يرفض الرجوع إلى التراث ويدعوا للقطيعة مع منجزاته، واتجاه ثالث يحاول التوفيق بين الاتجاهين الآخرين والاستفادة من إنجازات الماضي ومعطيات الراهن، غير أنّ ما تروم الدراسة البحث فيه هو موقف (الاتجاه التغريبي) والذي يمثله النقاد العرب المثقفين ثقافة غربية والذين ينظرون إلى المنجز النقدي القديم على أنه بقايا ثقافة الماضي، وبالتالي لا يمكن التعويل عليه في النهوض بالفكر النقدي العربي، وفي المقابل يسعون إلى اعتناق الفكر والنظريات النقدية الغربية وتبني مقولاتها كأساس علمي يساعد العقل النقدي العربي على تخطي أزماته المرتبطة بمقاربة خطاباته الأدبي.

وارتماء النقاد العرب في أحضان الثقافة الغربية واستعارة فكرها النقدي لمحاورة المنجز النقدي القديم جعل الكثير ممن يتعصبون للتراث يُشكك في صدق نواياهم والأهداف الحقيقية وراء اغترابهم وتنكرهم لتراث أسلافهم، على الرغم من المكانة التي حظي بها النقد الأدبي القديم في زمانه ومكانه، واحتوائه على كمّ ضخم من المصادر النقدية الهامة والمدونات والكتب والمؤلفات القيمة التي لا تزال محط اهتمام الباحثين والنقاد

إلى يومنا هذا، وكل هذا لم يشفع للنقاد القدامى لدى أصحاب الموقف الرافض لجهودهم بل وراحوا
يستعرضون مبررات موقفهم ويطرحون مشاريعهم التي يرونها بدائل لتحريك الماء الراكد في مستنقع المشهد النقدي العربي، وفي ضوء عطالة العقل النقدي العربي وقصوره على إيجاد حلول لأزماته المتلاحقة - بحسب زعمهم- ولهذا وسعياً منا لتشريح موقف النقاد الاغترابيين من التراث النقدي العربي، وتعريف القارئ بمضمون مشاريعهم ومقترحاتهم لتجاوز عثرات النقد القديم اخترنا نماذج يتقدمهم عميد الأدب العربي (طه حسين) الذي كان زاهداً إلى أبعد الحدود في موقفه من التراث العربي عامة واعتبر ذلك مساساً بثوابت الأمة ومقوماتها، كذلك نموذج الناقد (علي أحمد سعيد) المدعو (أدونيس) ونموذج الناقد السعودي (عبد الله الغذامي) الذي أنهى فصول الاغتراب والتأثر بالثقافة الغربية بإعلان موت النقد الأدبي واستبداله بالنقد الثقافي، وهذا الاختيار لم يكن اعتباطيا فكل ناقد هو ممثل ونائب عن هذا الاتجاه في فترات مختلفة من تاريخ الثقافة العربية ، واعتمد البحث في رصد أفكار ومشاريع وأطروحات هؤلاء على الوصف والتحليل في بسط الآراء والتصورات النقدية الخاصة بكل واحد منهم لكي يتمكن القارئ من استيعاب وجهات نظرهم مع كل تحمله من مبررات، لكن قبل ذلك ينبغي التوقف عند تعريف التراث النقدي للوصول إلى فهم طبيعة الإشكالية واستيعاب حدودها المعرفية ونتائجها على الفكر والثقافة العربية راهناً ومستقبلاً.

2- مفهوم التراث النقدي العربي:

اختلف النقاد وحتى المفكرون العرب في الوصول إلى مفهوم جامع (للتراث) عموماً، وذلك لعدة عوامل تأتي في مقدمتها عدم القدرة على تحديد الإطار الزمني لهذا التراث، ومعرفة نقطة البداية والنهاية فيه، فتعددت المفاهيم وفقاً لتصورات النقاد والمفكرين الفكرية والإيديولوجية، ومنهم المفكر (محمد عابد الجابري) الذي حصر التراث في الجانب الفكري للحضارة الإسلامية ممثلاً في "العقيدة والشريعة واللغة والأدب ، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات "[1]، وهو مفهوم يعكس التوجه الإسلامي للمفكر ورؤيته الشاملة للمنجزات الفكرية للحضارة الإسلامية وارتباطها الوثيق بمفهوم التراث، وربط هذا الأخير بفترة زمنية بذاتها كانت وراء تصور (محمد عابد الجابري) الذي يعتبر أن التراث هو" إنتاج فترة زمنية تقع في الماضي وتفصلها عن الحاضر مسافة زمنية ما

تشكلت خلالها هوة حضارية فصلتنا وما زالت تفصلنا عن الحضارة المعاصرة، الحضارة الغربية الحديثة"[2]

فيما يرى (حسن حنفي) أنّ " كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة فهو إذن قضية موروث، وفي نفس الوقت قضية مُعطى حاضر على جميع المستويات "[3] وفي هذه الحالة يكون (التراث) امتداد طبيعي لمعطيات ثقافة الماضي داخل حدود الحاضر، حيث يتماهى القديم إلى جانب الجديد في تحقيق ديمومة الحضارة الإنسانية، وبالتالي تجنب حدوث قطيعة معرفية وفكرية بين أجيال الماضي ونظيرتها في الحاضر.

ولأن (التراث النقدي) هو جزء لا يتجزأ من التراث العربي عامة فإن القبض على مفهوم شامل له شكل عائقاً حقيقياً أمام كل باحث وناقد في هذا المجال، لذلك فإن مفهومه لا يمكن أن يتم خارج إطار الإشكالية العامة للتراث العربي، وهي إشكالية حُبلى بالأبعاد المعرفية والحمولات الوجدانية والإيديولوجية التي تجعل من (التراث النقدي) في نظر المتعصبين له أحد أهم مكونات الهوية العربية.

وفي هذا السياق يربط كثير من الباحثين مفهوم التراث النقدي بطبيعة العلاقة التي تجمعه مع نظرية النقد ونظرية المعرفة المعاصرة وهي علاقة تفترض أن يكون " مفهوم التراث هو موضوع معالجة معرفية إجرائية، بسبب صلته بنظرية النقد من جهة، وبنظرية المعرفة المعاصرة التي لا تعلن دائما عن هويتها الغربية بصورة صريحة"[4]، و نظرية المعرفة المعاصرة غالبا ما تكون خلفياتها الفلسفية والفكرية ذات أصول غربية تتنافى وطبيعة الفكر النقدي والمعرفي العربي، وهذا الأمر يتناقض مع موقف أصحاب الاتجاه التغريبي الذين يهرولون صوب احتضان أفكارها ومبادئها بدعوى تجديد أدوات النقد ونظرية المعرفة العربية.

3-نماذج من قراءات نقدية اغترابية للتراث النقدي العربي

وقد بدأ الحديث عن قضية التراث –عموماً- عربياً منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وما يزال النقاش حولها مستمراً إلى يومنا هذا حيث "وُلدت هذه الإشكالية في الفكر العربي على نحوٍ بالغ الوضوح في سِتينيات القرن الماضي وإن سبق ميلادها قدرٌ ملحوظ من الإلحاح على موضوع التراث في التأليف العربي لدى جمهرة كبيرة من الباحثين العرب، وتنصرف الملاحظة هذه إلى التنبيه إلى الفارق بين ظاهرة الاهتمام بالتراث وهي بدأت مبكرة وبين ميلاد إشكالية التراث التي أتت متأخرة -نسبيا- عن بدء الانشغال به"[5].

إنّ الأمر المؤكد في قضية التراث النقدي العربي هو التّباين في وجهات النظر بين النقاد وهو تباين يزيد من تعقيد الإشكالية التي تُمثل "في واقعها إشكالية عقل عربي قيد التّشكل وهو ما زال بعد يحاول إيجاد طريقه إلى تجاوز تردُّده المُزمن بين استئناف مسيرة ثقافة تاريخية ممتدة الجذور في الماضي، وبين ضرورة الانخراط في المرحلة العلمية والمعرفية التاريخية الحاضرة التي استطاعت تجاوز ذلك التراث والتفوق عليه، وفتحت مرحلة في المعرفة يُمكن أن نطلق عليها تسمية ما بعد التراث العربي [6].

إنّ العودة إلى محاورة (التراث النقدي) دلالة واضحة على احتواءه مصادر قيمة والإقبال عليه بالتحليل وإعادة قراءته قراءة نقدية خالصة يهدف للوصول إلى فهم شامل يستوعب ذلك الكم التراثي المختلف، لكن لابد من الاعتراف بحقيقة أن النقد العربي الحديث تأسّس في لحظة قطيعة مع الموروث النقدي العربي، فقد تفتح الوعي الثقافي لرواده من أمثال (طه حسين)و(العقاد) و(الرصافي) وغيرهم على مناخ الحضارة الغربية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لتتواصل القطيعة مع توجه النقاد العرب المعاصرين نحو تبني المناهج النقدية الغربية في قراءة النصوص العربية؛ ما يعني أن العودة إلى التراث النقدي العربي القديم لدى النقاد ذوي الثقافة الغربية واستحضار نصوصه وأعلامه "انطلق أساسا من داخل المنظومة المعرفية الغربية ذاتها، فقد استلهم واستثمر المفكرون والنقاد العرب نظرياتها ومناهجها في قراءة مدونتهم التراثية ومن ثمّ اختلفت وتشعبت مُنطلقاتهم بتشعب منظومة القراءة والتحليل الغربية المرجع، الأمر الذي طرح علامات استفهام كثيرةٍ وأثار شيئًا من التوجّس واللّبس حول جدوى هذه المحاولات، أهي قراءات استكشافية ترُوم تثمين جهود القدماء بإعادة قراءة نصوصهم النقدية وتحيينها ؟ أم تراها مجرد قراءات إسقاطية تنتخب من تلك النصوص والآراء ما تعتقد أنه يستجيب لإملاءات المناهج النقدية الغربية ؟ ومن ثم تعاملها معاملة العينات المختبرية لاكتشاف مدى نجاعة تلك المناهج النظرية والإجرائية بالدرجة الأولى؟ "[7].

وكان (حسن حنفي) في كتابه (التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم) قد أطلق مصطلح (الإزدواجيين) على فئة النقاد العرب المثقفين ثقافة غربية، والذين تبنوا أفكارها وانصهروا فيها ثقافيا ودينيا " ذلك أن أكثرية هذه الفئة تربطها بأوربا أوشاج ثقافية ودينية، فقد تربت في مدارس غربية خاصة دينية أو علمانية كما نشأت في الغرب وتكونت فيه، وتظن أن التراث القديم تراث (إسلامي) لا يرتبطون به دينيا أو ثقافيا "[8].

وقد نتج عن قضية قراءة التراث شبه صراع إيديولوجي بالدرجة الأولى بين (الأنا) العربية الباحثة عن الذات والهوية الوجودية، وتحصين الهوية الثقافية التي يتهددها الاندثار بفعل غزو ثقافي تكفل بتجسيده ثُلة من النقاد العرب الذين انخرطوا " في ذلك المسعى البراغماتي المشدود إلى أوربا في صميم الاستقبال العربي للمذاهب الفكرية والنقدية الغربية مع ما اكتنف ذلك من نظرة الانبهار بمنظومتها المنهجية والاصطلاحية إلى درجة أن بعض هؤلاء المُنبهرين لم يتورّع عن تشكيك العرب في ماضيهم الثقافي عامة والأدبي منه خاصة ومهاجمة إعجابهم الذّاتي بتراثهم "[9].

1-3 نموذج (طه حسين) وآلية الشك في التراث الأدب والنقدي العربي :

ومن النقاد العرب الذين أثاروا جدلاً واسعا في الوطن العربي نتيجة موقفه من التراث العربي عامة الناقد (طه حسين) الذي تأثر بالثقافة الغربية لدرجة التشكيك والطعن في الموروث العربي على اختلاف أنواعه، ولا شك أن تبنيه منهج الشك لديكارت وأفكاره كان وراء تلك النظرة الدونية اتجاه تراث أمته، ومن بين قراءاته التي طالت الموروث العربي وانتقصت من قيمته قراءته لمقدمة (ابن خلدون) وهي أطروحة ناقشها في فرنسا عام 1917بعنوان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية(تحليل ونقد)، حيث اعتبرت أول قراءة تطال المقدمة في العصر الحديث بعد القراءات التي قدمها كثير من المستشرقين.

ففي قراءته للمقدمة تعرض الناقد لنظرية (ابن خلدون) في علم الاجتماع مع التأكيد على هذا الجانب بالذات فيها، والأهم الذي طرحه بشأنها هو إثارته لمشكلات نظرية حول جنسها وحول المجال العلمي الذي تنتمي إليه هل هو التاريخ ؟ أم الفلسفة ؟ أم الاجتماع ؟

وما يُؤخذ على (طه حسين) هو الحذر النقدي اليقظ وعدم التسرع في الحكم على نظرية (ابن خلدون) وهو ما اعتبره بعض الدارسين تشكيكاً من طرفه في المقدمة وصاحبها على الرغم من الانبهار الذي أحدثته لدى المفكرين والمستشرقين في الغرب " فمع تسليم (طه حسين) بأنّ (ابن خلدون) قدّم حسبما نعرف من تاريخ الفلسفة حتى القرن الرابع عشر لأول مرة موضوعاً جديداً (...) إلا أنّ ذلك لا يكفي لأن نمنحه لقب عالم الاجتماع وأن نعتبر بحثه باكورة لما نسميه اليوم علم الاجتماع "[10].

في اعتقاد (طه حسين) أنه التزم أقصى درجات الموضوعية والحياد والنزاهة وطمح إلى تقديم إضافة في البحث العلمي في قراءته للمقدمة، مع عدم التزيّد في الاحتفاء بفكر (ابن خلدون) الأمر الذي أثار حفيظة النقاد الغيورين على التراث معتبرين " الغلو في تلك

الموضوعية والحياد أخذه إلى قليل من التحيّف في النظر إلى مساهمة (ابن خلدون) في الفكر الإنساني، فبدا كما لو أنّ من مقتضيات الموضوعية والنظرة النقدية مواجهة فكرة الريادة بغير قليل من الاستصغار أو من الابتخاس "[11] .

وفيما يخص الموروث النقدي العربي لم يسلم هو الآخر من شك (طه حسين) وطعنه في أطروحاته وقضاياه وتجلى هذا الشك خصوصا في قراءته للشعر العربي القديم حيث "تنتظم قراءته النقدية في شكلين متباينين متمايزين أولهما قراءته بدافع النزوع نحو مماثلة التراث العربي للتراث اليوناني ومن ثم الأوروبي، وثانيهما قراءته للشعر العربي قبل الإسلام قراءة حديثة، الأمر الذي انجرّ عنه استبعاده وإقصاؤه من دائرة الباحثين المُلتزمين بقضايا الأمة والذائدين عن حُرماتها ومقدّساتها، ذلك النزوع المعرفي الذي دشنه العميد بوقوفه في وجه النظرة السلفية الدوغمائية للتراث ومحاولة نزع رداء القداسة الذي تتدثّر به مثل هذه القراءات"[12].

لقد تأثر (طه حسين) بالفكر الديكارتي في مقاربته للنص الشعري العربي القديم مُخضعًا كل التراث إلى مبدأ الشك في محاولة منه لانتهاج العلمية في النقد الأدبي، وكانت نتيجة هذا الشك اعتباره الشعر العربي القديم منحول وموضوع، مُتجاوزاً دراسات الأقدمين من النقاد من أمثال (ابن سلام الجُمحي) و(الأصمعي) و(أبو عمرو بن العلاء) وغيرهم، فهو لم يقف من دراسات النقاد العرب القدامى موقف المُسلم والمعُتقد بل وقف منها موقف المُشكك في طروحاتها وفي نتائجها أيضا دون اعتبار للآليات النقدية القرائية التي عمل النقد القديم على توظيفها في ممارسته لعملية النقد الأدبي بكل تصوراته ومقولاته وقناعاته، لكن "من الواضح أنّ (طه حسين) يريد تفكيك هذه الكتلة المتصلبة من التصورات والقناعات والمقولات وذلك لا يتم من وجهة نظره إلا من خلال فعلين متزامنين أولهما : الشك والارتياب بكل ما قيل وثبت حول الأدب القديم - وبخاصة الجاهلي- باعتباره في تصور القدماء الأصل الذي تحدّر منه الأدب العربي واللغة العربية، وثانيهما: تعليل ماهية الأدب بوصفه مرآة تعكس فيها جملة الظروف الموضوعية والذاتية لمبدعه وعصره وبيئته وطِباعه وكل المَحضن الثقافي الذي يحتضن ظهوره "[13] .

إنّ تعامل الناقد (طه حسين) في قراءته للمدونات التراثية العربية وخاصة دراساته للشعر الجاهلي تعامل جريء لم يسبقهُ إليه غيره من النقاد سواء القُدامى أو المُحدثين، حيث اعتمد التّشكيك والطّعن في مقولات وتصورات الموروث العربي عامة والنقدي منه

على وجه الخصوص، متسلحاً بآليات الفلسفة الديكارتية ومنظومة الفكر الغربي بكل مرجعياتها المختلفة ما جعله عرضة للنقد اللاّذع وحتى التكفير من كبار الهيئات الدينية العربية والإسلامية.

3- 2 نموذج (أدونيس) ومعيار الثبات والتحول في الخطاب النقدي القديم :

يُعد الشاعر والناقد (علي أحمد سعيد) المعروف باسم (أدونيس) رائداً من روّاد الحداثة النقدية والأدبية العربية، وواحدا من كبار منظري النقد الأدبي الحديث في العالم العربي، بيد أن المُتأمل في نتاجه النقدي والأدبي يجد أنه يستمد مقومات شخصيته الفكرية والثقافية من الفكر والثقافة الغربية أكثر مما يستمدهما من التراث العربي، "فقد تأثر بالرمزية الفرنسية والمثالية الألمانية لاسيما فلسفة (نيتشه) الذي يرى أن العمل الفني يُولِد نفسه، أما الفنان فيُحول الوجود إلى عمل على صورته فالفن ليس أداة للحقيقة بل للوهم، ومن نيتشه انطلق (أدونيس) في شعره ونقده يبحث عن الإنسان المتفوق ...الإنسان العبقري المنبعث من ركام الانحطاط العربي على الرغم من أنّ (أدونيس) صرح أكثر من مرة بأنّه يستمد مقومات ثقافته من جذور عربية "[14].

هذا وعلى الرغم من إنكار الناقد في عديد المناسبات تأثره الظاهر بثقافة الغرب نجده في أحد مُؤلفاته يعترف صراحة بأنه مأخوذ بالثقافة والذهنية الغربية يقول :" أحب أن أعترف بأنني كنت بين من أُخذوا بثقافة الغرب، غير أنني كنت كذلك بين أوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلحوا بوعي ومفهومات تمكنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة، وأن يحققوا استقلالهم الثقافي الذاتي، وفي هذا أحب أن أعترف أيضا أنني لم أتعرّف على الحداثة الشعرية العربية من داخل النظام الثقافي العربي السائد وأجهزته المعرفية، فقراءة بودلير هي التي غيّرت معرفتي بأبي نواس وكشفت لي عن شعريته وحداثته، وقراءة (ملارميه) هي التي أوضحت لي أسرار اللغة الشعرية وأبعادها الحديثة عند (أبي تمام)، وقراءة (رامبو) و(ترفال) و(بريتون) هي التي قادتني إلى اكتشاف التجربة الصوفية بفرادتها وبهائها، وقراءة النقد الفرنسي هي التي دلتني على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني خصوصا في كل ما يتعلق بالشعرية وخاصيتها اللغوية التعبيرية"[15].

لقد وصف كثير من الباحثين والنقاد طريقة مقاربة (أدونيس) بأنها تمرد على الموروث النقدي، حيث يرى أنّ النقد العربي القديم يدور كله حول معرفة مدى التطابق بين كلام الشاعر والحق أي بين الشعر والأخلاق والدين؛ لذلك فإن معيار صحة الشعرية - بحسب ذلك الموروث- كان معياراً إسلامياً أخلاقياً يحاول أن يدرك تماسك النظام

الديني وتطابق الشعر، فالنقد بحسب تلك النظرة القديمة كما يرى (أدونيس) في الثابت والمتحول فن اكتشاف الوحدة بين الشعر والواجب الأخلاقي والاجتماعي، و(أدونيس) يضع هذا الكلام بوصفه نتيجة استقرائية مفروغ منها وخلاصة للمتن النقدي القديم كله لذا من وجهة نظره يجب أن تتغير النظرة إلى النقد بالثورة عليه لتغييره جذرياً ولا يكون ذلك إلاّ بأن يبدأ الفكر العربي يُفكر في ما لم يُفكر فيه، في ذلك المكبوت التاريخي أو المتعالي دينيا وفكريا وجسديا واجتماعيا وسياسيا "[16].

وفي تقصِّيه لجذور الحداثة العربية يرى (أدونيس) في كتابه (الثابت والمتحول) أن بذورها بدأت في الشعر الجاهلي ومع (امرؤ القيس) الذي يعده أُنموذجا لذلك، من حيث إنه لم يكن شاعر القبيلة كما اصطلح عليه في النقد القديم، فالشاعر يُقاس بمدى صدوره عن قيم القبيلة بحيث يكون مدافعا عنها يتغنى بأمجادها ويُسجل بطولاتها، لكن (امرؤ القيس) كسر هذا النموذج وفكّر خارج النظام في شعره لذا نجد من جملة ما عِيب عليه في شعره من طرف النقاد القدامى أمور يعُدها (أدونيس) بذور حداثة حقيقية في تلك الفترة :

- خروجه عن النموذج الأخلاقي القبلي .
- خروجه عن نموذج المعاني الذي كان في ذهنية القارىء.
- خروجه عن نموذج التعبير في استعماله لقاموس لغوي يحيد باللفظة عما وُضعت له في الأصل .
- كان يُضيف بيتا إلى بيت ويعلقه عليه، وهذه هي العيوب في الشعر عندهم [17].

إنّ ما يمكن فهمه من اعتبار الناقد (أدونيس) للتجاوزات التي عدّها النقاد القدامى عيوباً في شعر (امرىء القيس) بذوراً حقيقية للحداثة العربية الشعرية هو في الحقيقة رفض وتمرّد على نظرية عمود الشعر التي أقرها كل من (الآمدي) و(المرزوقي) و(الجرجاني) والتي تُعد أول صياغة للشعرية العربية وهي ممثلة في المبادىء السبعة (شرف المعنى وصحته، جزالة اللفظ واستقامته، الإصابة في الوصف، المقاربة في التشبيه، التحام أجزاء النظم والتآمها على تخير من لذيذ الوزن، مناسبة المستعار منه للمستعار له، مُشاكلة اللفظ للمعنى).

في قراءته للنقد العربي القديم أطلق (أدونيس) مصطلح (الخطاب النقدي التقعيدي) في إشارة منه القواعد التي وضعها النقاد القدامى للشعر الجاهلي يقول :" إننا اليوم نواجه أزمة في العلاقة مع هذا الشعر وهي أزمة تكمن في الخطاب النقدي الذي أوّله

ونظّر له، فقد حدد له خصائص بوصفه شعراً شفوياً مُحولاً إياه إلى قواعد معيارية مُطلقة للشعرية الكتابية، بحيث لا يُعد أي كلام شعراً إلاّ إذا كان موزونا على الطريقة الشفوية التي حددها الخليل؛ بحيث جعل من هذه الطريقة الخاصية الشعرية الأولى وقد سادت هذه القواعد فاصلة بين الشعر واللاشعر وساعد في ترسيخها مناخ التقعيد والعقلنة والصراع الإيديولوجي بين العرب وغيرهم في القرون الهجرية الثلاثة الأولى[18] .

يعتبر (أدونيس) أنّ النقد العربي القديم أدخل الشعراء المحدثين في أزمة كونه قعّد للشعر الجاهلي الشفوي وحدد له جملة من الخصائص تنطبق عليه في ذاته، وهي قواعد لا يمكن تجسيدها على الشعر المكتوب، وبالتالي منظور القراءة بين الشّعرين لابد أن يختلف كليا "...ونحن اليوم إذ نقرأ ماضينا الشعري فليس لكي نرى ما رآه الخليل واللاحقون - وحسب- وإنما لكي نرى ما غاب عنهم وما لم يروه، ونحن اليوم نقرأ الفراغ أو النقص الذي تركوه خصوصا أن التقنين والتقعيد يتناقضان مع طبيعة اللغة الشعرية ..."[19].

وفي كتابه الشعرية العربية وهو سلسلة محاضرات ألقاها (أدونيس) في الكوليج دو فرانس عام 1984بفرنسا بدعوة من جمعية أساتذتها يطرح الناقد مجموعة من التساؤلات تتعلق بالنقد العربي القديم؛ مشيرا إلى أنّ قراءته تستهدف الصامت في الخطاب النقدي القديم والذي لابد أن ترتكز عليه كل قراءة حقيقية وجادة تُسهم في تحقيق حداثة وتميّز في الممارسة النقدية العربية في مقاربتها للموروث العربي وجاءت تلك التساؤلات على النحو التالي :

" لمَ كان الخطاب النقدي التقعيدي الذي ساد خطاباً واحداً؟ بنظرة واحدة لكن بأصوات متعددة ؟ لم هذه النظرة الواحدة؟ هل لأنها حجبت غيرها؟... هل كانت وحدها النظرة الصحيحة ولمَ عُدت كذلك وكيف؟ كيف تقرر أنّ الشعر الجاهلي لا يُفهم ولا يقوم إلا وفقا لهذه النظرة خصوصا أن قراءته اليوم تكشف عن تنوعه الإختلافي مما يفترض تنوعا في الفهم والأحكام النقدية؟ هل كان التنوع في النظر إلى الشعرية الجاهلية موجودا ولكنه طُمس أو مُنع؟ ...هل كانت هناك سلطة تستأثر بالخطاب التقعيدي إلى درجة تجعل منه هو نفسه سلطة تُلغي كل خطاب آخر؟...هل استمرار هذا الخطاب مُستعادا مُكررا صيغة من صيّغ إثبات الهوية ؟ وهو كذلك يميل إلى إلغاء غيره بوصفه تشكيكا فيها وبحيث تكون الهوية تكرارا للذات نفسها ...وفي هذه التساؤلات ما يشير إلى ذلك الخطاب التقعيدي، الواحد، المتواصل، يُخفي وراءه صمتا وغيابا ونُقصا؛ ونحن

اليوم مدعوون إلى ممارسة قراءة لتراثنا النقدي الشعري لنكشف عن الغياب والنقص ونستنطق الصمت "[20].

بهذه التساؤلات كانت قراءة ونظرة (أدونيس) للنقد العربي القديم وهي النظرة التي جعلته محل مُسائلة واتهام بدرجة أكبر حول الأفكار التي قدمها في قراءته للتراث العربي حيث خلقت تلك الأفكار ردود أفعال قوية في الأوساط الثقافية والأدبية ترجمتها القراءات والدراسات حول رؤيته النقدية والأدبية، وهي دراسات على تباينها تتراوح بين الترحيب والتحفظ والاتهام بالرجعية و...غيرها من الاتهامات لكن " ليس من المبالغة القول أن طموح النقاد العرب - ومنهم أدونيس- ولاسيما في سعيهم لتحقيق الريادة النقدية قد أدى إلى تهميش الخصوصية المعرفية النقدية العربية من خلال محاولاتهم تفكيك أسس تلك الثقافة وتفريغها من محتواها بإدعاء العالمية "[21].

3- 3 نموذج (عبد الله الغذامي) و إعلان موت النقد الأدبي :

يُعتبر الناقد (عبد الله الغذّامي) من النقاد الذين حاولوا استنساخ النموذج النقدي الغربي وتأصيله على مستوى الممارسة النقدية و الثقافة العربية، وتجسد ذلك في كثير من مؤلفاته أهمها كتاب (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية) والذي أعلن فيه عن موت النقد الأدبي وإحلال النقد الثقافي مكانه يقول :" بما أنّ النقد الأدبي غير مؤهل للكشف عن الخلل الثقافي كانت دعوتي بإعلان موت النقد الأدبي وإحلال النقد الثقافي مكانه، وكان ذلك في تونس في ندوة عن الشعر عُقدت في 1997/9/22، وكرّرتُ ذلك في مقالة في جريدة الحياة (أكتوبر 1998)، وليس القصد هو إلغاء المنجز النقدي الأدبي وإنما الهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغض النظر عن عيوبه النسقية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه"[22].

متسلحاً بالكثير من الآليات النقدية الغربية انطلق (الغذامي) في محاكمة الموروث الأدبي والنقدي العربي، وإذا كان قد أعاد قراءة ذلك كله في ضوء مفهوم الحداثة وما بعدها، فإنّ قراءته شملت كل التراث العربي قديمه وحديثه بالانتقاص والتقزيم وعدم القدرة على مسايرة التطورات والتحولات المعرفية الحاصلة وهذا باعترافه وخاصة ما تعلق بالمنجز النقدي العربي يقول " وأنا أرى أن النقد الأدبي كما نعهده بمدارسه القديمة والحديثة قد بلغ حدّ النضج أو سن اليأس حتى لم يعُد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الآن عالميا وعربيا بما أننا جزء من العالم متأثرون به ومنفعلون بمتغيراته"[23].

إنّ التراث النقدي العربي القديم غزير وغني بالفكر والعلوم والمعارف الإنسانية، إلّا أنّ (الغذامي) يرى أنّ النقد الأدبي وخاصة القديم حصر اهتمامه في البحث عن الجمالي والبلاغي في النصوص الأدبية ما يعني - حسبه- أنّ البلاغة هي " الأصل التكويني للنقد الأدبي عربيا وإن جرى تطوير الأدوات النقدية مع الزمن ومع الرواد ومع المدارس ومع ضروب التبادل المعرفي المتنوعة، إلا أنّ الغاية القصوى للنقد ظلت هي الغاية الموروثة من البلاغة وهي البحث عن جمالية الجميل والوقوف على عوالمها"[24].

إنّ (الغذامي) يعتبر البلاغة الأصل الذي احتضن النقد الأدبي وقد عُني بها النقاد القدامى عناية كبيرة خاصة وأنّ العرب عُرفوا بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان الذي لا يجاريهم فيه أي من الأمم الأخرى، ولاشك أنّ التراث النقدي حافل بالمدونات التي تُرسخ لبلاغة العرب مثل كتب (الجاحظ) و(عبد القاهر الجرجاني) مؤسس علم البلاغة و(السكاكي) وغيرهم، هذا العلم حسب (الغذامي) " لم يعد يصلح لشيء، فلا هو أداة نقدية صالة للتوظيف، ولا هو أساس لمعرفة ذوقية أو تبصر جمالي، وإن كانت قديما كذلك ...فمن ذا يحتاج إلى رصد الكنايات والجناسات والطباقات في أي نص ؟ ومن ذا يحتاج إليها لتذوق أي نص أو التعرف على صيغه ودلالاته؟ ونحن ندرس طلابنا كل ماهو نقيض لهذه البلاغة ومتجاوز لها، لكننا لا نجرؤ على إلغاء مقررات البلاغة وقد نظن أن إلغائها سيكون بمثابة الانتحار المعرفي أو التآمر ض التراث وضد ذائقة الأمة"[25].

إنّ الفكر النقدي العربي يستند في توجهاته وآلياته على ميراث بلاغي ضخم متنوع ومتعدد ينهل منه ويبتكره ويُعيد اكتشافه كلما ازداد تفاعله مع الفكر النقدي الغربي، وقراءة (الغذامي) للنقد الأدبي القديم على أنه مجرد فن بلاغي يجعل منه " علم يتعامل مع المجاز والخيال وليس مع الحقيقة والواقع، وليس له دخل في أي حقيقة مهما كانت دينية أو سياسية أو تاريخية، ولقد نص القاضي الجرجاني والصولي على فصل ما هو أدبي عما هو ديني"[26] .

وفي قراءته للشعر العربي قديمًا وحديثًا اعتبر (الغذامي) أنه المسؤول عن عيوب الشخصية العربية الثقافية بما يُمرره من أنساق مضمرة دون وعي منّا، فديوان العرب الذي طالما افتخروا به يحمل في طياته عيوبًا نسقية في غفلة من النقاد والدارسين وعدم اهتمامهم بوظيفة الشعر الحقيقية، وخطورة تلك الأنساق على الثقافة والشخصية العربية بتركهم- أي النقاد – للشعر في بحر البلاغة والدراسات الجمالية .

وحمّل (الغذامي) النقاد القدامى مسؤولية تمرير فكرة (الفحولة الشعرية) والتي كانت - بحسب رأيه - "معيارًا في تحديد قيمة الشاعر ومكانته وتقسيم الشعراء إلى

طبقاتٍ وكتب (ابن سلام الجمحي) و(ابن قتيبة) و(الأصمعي) خير مثال على ذلك ...وانطلاقا من هذه الأهمية لمعيار الفحولة في النقد العربي القديم وكذلك في الثقافة العربية الذكورية حاول الغذامي أن يربط بين الشعر واختراع الفحل الشعري الذي بدور ه يتحوّل إلى فحل ثقافي سيتجلّى في خطاباتنا وتصرفاتنا اليومية والاجتماعية والسياسية والثقافية" [27].

إنّ (الغذامي) في مقارباته النقدية للنقد الأدبي يعتمد أسلوب تعميم الأحكام على كل المنجز النقدي العربي قديما وحديثا دون استثناء أو تحييد و مقايسة، إضافة إلى التناقض الواضح في موقفه من النقد فهو من جهة يُعلن موته، ومن أخرى يشيد بالإنجازات التي حققها عبر العصور، ويذكر أنه "يكاد يكون هو العلم الأكثر امتدادا والأعمق تجربة بين سائر العلوم في الثقافة العربية، ولاشك أنه العلم الذي حقق لنفسه استقلالا نوعيا من المؤثرات السلطوية"[28]،ومن جهة أخرى يرى " أن السلطة كانت ترى فيه علما غير نافع وأن الشعراء كانوا يستهترون به وبالنقاد اللغويين "[29].

لقد لقيَ إعلان (عبد الله الغذامي) إلغاء النقد الأدبي لكونه مجرد فن بلاغي ردود أفعال متباينة في الأوساط النقدية والأدبية والثقافية العربية، وهي ردود تراوحت بين الرفض والقبول المُتحفظ، ومن جملة من عارضه الناقد (عبد النبي اصطيف) الذي ألّف رفقته كتابًا تحت عنوان (نقد ثقافي أم نقد أدبي ؟) يتناول في جزءه الأول طرح (الغذامي) ورؤيته للنقد الأدبي، بينما يتضمن الجزء الثاني منه الرأي المعارض للطرح الأول يقول في رده على (الغذامي) " إنّ أي قارئ لتاريخ النظرية العربية القديمة يستطيع أن يسوق عدداً لا يُحصى من الأمثلة التي تُدلل على مجافاة زعم (الغذامي) لجادة الصواب؛ ويكفي الإشارة في هذا المقام إلى عبد القاهر الجرجاني ...وحازم القرطاجني وابن حزم الأندلسي لتكون رداً مفحماً - فيما يبدو لي - على كل من يرى أنّ النقد العربي الكلاسيكي مجرد فن بلاغي، فالمشكلة تكمن في سوء ممارسة البعض للنقد الأدبي لا أكثر مما هي كامنة في التقعيد للنقد العربي القديم"[30].

وفي محاكمته للشعر العربي ومفهوم الفحولة الشعرية - تحديدًا- يرى كثير من الدارسين أنّ (الغذامي) يخلط بين مُصطلح (الشاعر الفحل) في النقد العربي القديم وبين نقد العقلية الذكورية الشائعة في أدبيات الحركة النّسوية، "فتعبير الشاعر الفحل يُقصد به قديما الشاعر المجيد الذي يمتلك شاعرية تُمكنه من أن يَجترح له مذهبًا في الشعر يكون نموذجًا متبعًا وقدوة لغيره من الشعراء، لذلك نجد أنّ مُصنفي طبقات

الشعراء في النقد العربي القديم قد خصُّوا شعراء مُحددّين وأخرجوا من دائرة الفحولة شعراء آخرين، ولو كانت الفحولة الشعرية حكرًا على الشعراء الذّكور لعدُّوا كلّ شاعر ذكر شاعًرا فحلاً، بل إنّ مصنفي طبقات الفحول أدرجوا الشاعرة الخنساء المعروفة فحلةً دلالة على أنّ الفحولة الشِعرية ليست مقصودة على الذكورة"[31] .

4- خاتمة :

يظل سؤال التراث النقدي أكثر الأسئلة إلحاحاً في الطرح سواء في الفكر العربي الحديث والمعاصر أو في الخطاب النقدي العربي حديثه ومعاصره، وفي الرد على أسئلة التراث اختلفت القراءات وتباينت تبعا لاختلاف التوجهات الفكرية والإيديولوجية؛ ذلك أن مقاربات وقراءات النقاد المتأثرين بالثقافة الغربية كانت أكثر طعنا في مصداقية الموروث النقدي العربي، (فطه حسين) أعمل آلية الشك في التراث العربي عموما وفي الشعر الجاهلي خصوصا معتبرا إياه منحولاً، بينما وصف (أدونيس) الخطاب النقدي القديم بالخطاب التقعيدي الذي وضعت قواعده لتناسب الشعر الشفوي دون المكتوب، ويختم (عبدالله الغذامي) الثورة على الموروث النقدي العربي بإعلانه موت النقد الأدبي قديمه وحديثه بحجة أنه نقد بلاغي جمالي يهتم بالجماليات على حساب الأنساق.

إن هذه النماذج هي عينات لنقاد مغتربين ثقافيا، وكل ناقد يمثل مرحلة من مراحل النقد العربي الحديث والمعاصر، حيث حملوا الأفكار والخصائص المعرفية لكل مرحلة فكان كل واحد منهم مرآة الاتجاه الاغترابي في عصره، وإن اختلفوا في ارتباطهم الزماني والمكاني بالتراث النقدي العربي، فإنهم اجتمعوا على الدعوة إلى القطيعة مع كل منجزاته السمينة منها والغثة، ولهذا ينبغي عدم الانجرار وراء الأفكار الهدامة والتي تسعى للطعن في مقدرات النقد القديم والعمل على توظيفها بما يتلاءم وطبيعة الثقافة العربية وخصوصيتها المعرفية.

قائمة المراجع :

- أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإتباع والابتداع عند العرب، الأصول، ج1، دار الساقي، بيروت، لبنان1999،ط1.
- أدونيس : الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان 1985، ط1.
- حسن حنفي : التراث والتجديد (موقفنا من التراث القديم)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)1992، ط4.

- طارق بوحالة : الشعر العربي على سرير بروكوست (قراءة نقدية في نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، مركز الكتاب الأكاديمي ، د ت، د س .
- عبد الإله بلقزيز: نقد التراث (العرب والحداثة3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان 2014، ط.1
- عبد الله ابراهيم : الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز العربي، بيروت، الدار البيضاء1999، ط1.
- عبد الله الغذامي :النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب2005.
- عبدالله الغذامي وعبد النبي اصطيف : نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر ،دمشق، سوريا2004، ط1.
-.محمد الطيب قويدري : مفهوم التراث في النقد العربي الحديث،(إي- كتب) للنشر، لندن ،انجلترا2018، ط1.

المقالات :

رشيد بلعيفة : أصول المنهج النقدي عند طه حسين ،نقد التراث الشعري أنموذجا) ، حوليات الآداب واللغات،جامعة مسيلة ، المجلد 3، العدد 1، 2015 .

رشيدة بن يمينة :نماذج من القراءة الحداثية للموروث النقدي العربي بين هاجس التأصيل ورهان التحديث ،مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية2018،المجلد15،العدد2.

مواقع الانترنت :

عبد المنعم عجب الفيا : تاريخ النشر 2016/03/21مراجعات أدبية في نقد النقد الثقافي ، https : ://www.sudanile.com/indexe.php/4/9130

علي حسين يوسف: تاربخ النشر2014/03/25 جدل التراث والحداثة ...أدونيس أنموذجا، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=407240

الهوامش:

[1] محمد عابد الجابري: التراث والحداثة ، دراسات ...ومناقشات، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (لبنان)، 1991، ط1) ،ص24.

[2] محمد عابد الجابري : (التراث والحداثة) ، ص 30.

[3] حسن حنفي : التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان،1992، ط4) ، ص 13.

[4] محمد الطيب قويدري : (مفهوم التراث في النقد العربي الحديث)، ص 12-13.

[5]عبد الإله بلقزيز: نقد التراث -العرب والحداثة3، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان 2014، ط1)، ص 38.

[6]محمد الطيب قويدري: مفهوم التراث في النقد العربي الحديث،(إي- كتب)للنشر، لندن ،انجلترا2018 ، ط1)، ص63،64.

[7]رشيدة بن يمينة : نماذج من القراءة الحداثية للموروث النقدي العربي بين هاجس التأصيل ورهان التحديث ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية،المجلد15،العدد2 ،2018، ص425.

[8]حسن حنفي : التراث والتجديد - موقفنا من التراث القديم ، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1992، ط4)، ص30.

[9]رشيدة بن يمينة : نماذج من القراءة الحداثية للموروث النقدي العربي بين هاجس التأصيل ورهان التجريب، ص 424.

[10]عبد الاله بلقزيز : نقد التراث (العرب والحداثة) ، ص 83 .

[11]عبد الاله بلقزيز : نقد التراث (العرب والحداثة)، ص 83 .

[12]رشيد بلعيفة : أصول المنهج النقدي عند طه حسين نقد التراث الشعري أنموذجا، حوليات الآداب واللغات، جامعة مسيلة ، المجلد 3، العدد 1، 2015 ، ص 93.

[13]عبد الله ابراهيم:الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة - تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، (المركز العربي،الدار البيضاء، المغرب 1999، ط1)، ص 36.

[14]علي حسين يوسف : تاريخ النشر2014/03/25، جدل التراث والحداثة في النقد العربي ...أدونيس أنموذجا، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=407240

[15]أدونيس : الشعرية العربية ، (دار الآداب ، بيروت ، لبنان 1985، ط)1، ص 86.

[16]علي حسين يوسف: جدل التراث والحداثة في النقد العربي ...أدونيس أنموذجا، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=407240

[17]أدونيس : الثابت والمتحول -بحث في الإتباع والابتداع عند العرب، الأصول ، ج1، (دار الساقي، بيروت، لبنان1999، ط1)، ص266.

[18]أدونيس : الشعرية العربية، ص30.

[19]أدونيس : الشعرية العربية ، ص31.

[20]أدونيس : الشعرية العربية، ص 32.

[21]علي حسين يوسف: ، جدل التراث والحداثة في النقد العربي ...أدونيس أنموذجا، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=407240

[22]عبد الله الغذامي :النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، (المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب2005 ، ط3)، ص8.

[23]عبد الله الغذامي/عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، (دار الفكر ،دمشق، سوريا2004، ط1)،ص12.

[24]عبد الله الغذامي/عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 18.

[25]عبد الله الغذامي/عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 12.

[26] عبد الله الغذامي/عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي،ص 20.

[27]طارق بوحالة: الشعر العربي على سرير بركوست (قراءة نقدية في نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، مركز الكتاب الأكاديمي ، د ت، د س ، ص 94.

[28]عبد الله الغذامي /عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 19.

[29]عبد الله الغذامي /عبد النبي اصطيف : نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 20.

[30]عبد الله الغذامي /عبد النبي اصطيف : نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 182.

[31]عبد المنعم عجب الفيا: تاريخ النشر 2016/03/21 ،مراجعات أدبية في نقد النقد الثقافي https://www.sudanile.com/indexe.php/4/9130